ارفعْ يدك عني، هذا بلدي!

علي الطائي
(شاعر وناقد)

إضاءة أولى

في نهـار يوم ٩٨/١٢/١٧، ثاني أيام العـدوان الأمـريكيّ البـريطانيّ على العـراق، خـرجتْ تظاهراتُ احـتـجـاج حاشدةٌ في معظم عواصم ومدن الوطن العربيّ والعالم تضامناً مع العراق ضد وحشية ذاك العدوان ولاشرعيته. ومما تناقلته وكالاتُ الأنباء العالمية، حينَها، ردُّ أحد المتظاهرين من الإخوة المصريين على واحـدٍ من رجـال الشـرطة لحظةَ دافَعَهُ ليحدّ من توسّع مساحة التظاهرة. فـقـد صـاح ذلك المتظاهرُ بمواطنه الشرطيّ: «ارفعْ يدكَ عنّي، هذا بلدي»... ويقصِدُ بهذه الـ «بلدي»: العراق.

والموقفُ نفسُهُ حـدَثَ مع مـتظاهرين عـرب في عـواصمَ عـربيـةٍ أخـرى، وتناقلتـه الوكـالاتُ العـالميـةُ للأنبـاء. فكأنهم باندفاعهم القوميّ الجارف في تظاهراتهم التاريخية كانوا يصيحون بالذي يحدُّ من احـتـجـاجـهم العـارم هذا: «ارفعْ يدك عني، هذا بلدي».

إضاءة ثانية

في زَحـمـة الشِّـعْـرِ الذي أجِـدُهُ في الاحـتـجـاج وقتَ أُحـاصَـرُ بالقـتل والمصـادرة، وفي زَحـمـةِ النثـر الذي أجِـده في النكوص والعـزلة وقتَ أُحاصَرُ بالعاديّ والنافِذِ، يتبيّن لي أنّ الواقعَ العربيَّ ذو مشهديْن ومسمعيْن: أحدُهُما شعريٌّ يتمثّلُ بالمبادرة الحازمة التي تكمن في االانقلاب؛ والآخر نثريٌّ يتمـثّلُ بالانزواء والتـخلّي عن كل شيءٍ ذي قـيـمـة. وكـثـيـراً مـا لاحظتُ تغلُّبَ الثاني على الأول عندما تشتدّ الأزماتُ القـاهرة بنا كـمـا يحصل الآن، حـيث تطغى مـسـاحـةُ النثر على مـسـاحـة الشـعـر في تمثـيل حـضـورنا العـامّ والخاصّ أمـام التحديات المختلفة، إذ تتبلور تلك النثريةُ في حُمّى الأزمات المهدِّدة للحرية إلى فعلٍ مضادٍّ للحياة يَدْفَعُ إلى الارتداد والانزواء واستساغة العاديّ، فـتتلاشى القدرةُ على الفعل الشـجـاع وتمثـيلِ أصـالتنا بالصـوتِ العالي للشعر.

وأتساءل: إذا كان الواقع في جانبه النثريّ مـزدحـمـاً بالرّعب والتـخلي عن المبادرة المُستقلة ـ التي تنقلُنا صـوبَ مـسـاحـاتٍ أكـثـر إضـاءةً وتأثيراً في عملية النهوض والتغيير الصـاعـد نحـو الانعـتـاق لتـوفـيـر فضـاءاتٍ تُديم الحـيـاة والإبداع ـ، فكيف يتمُّ لنا الحِفاظُ على شعرية ذلك الـواقـع وهـي التـي تشكّل في مضمونها منظومةَ حركتنا باتجاه التغيير الجذريّ، لتُبقينا دوماً في الخطوط المتقدمةِ والساخنةِ للحرية؟

إنه سـؤالٌ أو تسـاؤلٌ مُـحـيِّـرٌ يَرْشَحُ أسئلةً أكثرَ حيرةً لا تجدُ أجوبتَها إلا في استعادة شعرية الواقع التي يبعثها الاحـتـجـاجُ والثـورةُ ـ وهمـا فـعـلانِ أساسيانِ مترابطان دوماً (كما أخبرنا بذلك تاريخُنا النضاليُّ الطويل) قادران على إزاحـة الثـابـت من زوايا الرؤية العـادية لمصـيـرنا، وإلغـاءِ القناعـات الهزيلة التي تَحُولُ بيننا والوصول إلى أبعـد مـدَيات الممنوع والمحـذُور الموضوعة بيننا والمستقبل وأهدافه الملحّة في تأكيد حضورنا الحضـاريّ بين الأمم... وهو الحـضـور الذي بذلْنا التضحياتِ العزيزة من أجله عبر قرون نضـالِ هذه الأمة المبدعة التي لم تزل حيّـةً عـصـيَّـةً على القـتل والتدمـيـر، شُجاعةً باهرةً تبتكرُ تحتَ ضـغوطِ كلِ آنٍ تدميريٍّ أساليبَ بطوليةً في العودة إلى الحياة، المرّةَ تلوَ المرة.

وعلى الرغم مما حـدث ويحـدُثُ فـإنّنا نجدُ أنَّ شـعـريّة واقعنا التي تُبـقـينا مُـتـوقِّـدين أمـام الأحـداث والأزمـات المظلمة أخـذتْ تنمـو رويداً رويداً بعـد أن طغتْ نثريةُ الخوف حدَّ الموت. فقد تدارك إنسانُنا العربيُّ قَدَريتَها المزيفةَ أثناء الأزمات، وتلمّس اتّساعـهـا عند اشـتـداد العـدوان وتزايدِ أعـداد

المنسحبين من الساحات. وراح، تحت ضغط التزاماته بأصالته، يندفع اليومَ بقوةٍ نحو الشعر الذي يلم الشتّات، ونحو المبادرة المِقْدامة التي تؤكد حضورَهُ التاريخيَّ وريثاً لحضارةٍ عمرُها أكثرُ من سبعة آلاف سنة؛ فنراه ما إن يُستشهد في بغداد حتى يظهر في القاهرة وبيروت وفلسطين ودمشق وعمان وصنعاء وطرابلس والخرطوم وتونس والجزائر والدار البيضاء ونواكشوط... وعواصم العالم، وهو المتغرّبُ الأعزلُ هناكَ. ويبدأ يتحشّد داخل نفسه مُكرَّراً هذا الفعل البطوليَّ ليخرج به إلى ساحات المواجهة مستقطباً المنسحبين بعنفوانٍ لا يهدأ، فتطلُعُ الحشود بحشود تغطّي ساحاتِ التّحدي جميعَها. وما مواقفُهُ الباسلة، وصيحاتُه المحتجةُ خلال العدوان الأمريكيّ البريطانيّ على بغداد اليومَ إلاّ صيحاتُ الثورة المهِّدة لاحتواءِ نثريةِ واقعنا القاتلةِ المتخلِّيةِ عن أصالتنا وثوريتنا أمام اتساع التهديد والقتل وتمييع هويتنا القومية.. رافضاً تلك النثريةَ المكتفيةَ بالحصص الهزيلة والآمال البائسة والخطابِ المنقطع والزمنِ الميتَ.

القصيدة

وبغضِّ النظر عمّا أعرفُهُ ولا أعرفهُ
عن هذا الذي يحدُثُ لكَ ولي
فأنا أَحارُ في كيفَ ومِنْ أينَ أتطلّعُ إليْك
وهُمْ لم يتركُوا لنا أُفقاً
ولم يَعُدْ يُسْلَكُ إليكَ طريقْ
وكيف لي أَنْ أكتُبَ لك بتحمُّلِ شَرَسٍ
وأُخبِرَكَ بالحقيقةِ ولا يُبقِّعُ دمي الورقَ
ويغلقُ عينَيَّ دخانُ قلبي؟
فحيرتي كما عَهِدْتَها لم تكُفَّ عن الصهيلِ
منذُ العام ١٩٥٨ حتى اليومْ
فكيفَ لي أَنْ أستمرَّ صادحاً بالهتافِ لكَ
ولا يُمزِّقُ نَشيجي الكلماتْ
وينهارُ صَبْري الأثري؟
وكيف لي وكيف
ومن أين أبدأُ الحديثَ ومتى وكيف؟
ومع هذا أنتَ تدري؟
ما لا يكْفيني أقدِرُ أَنْ أُقسِّمَهُ ليكفينا معاً!
ولكنْ.. كيف لي
أَنْ أَجْمَعَ مَهبّاتي
لأُهْرَعَ لنَجْدتِكَ الصاخبة
وأنا مُحاصَرٌ هنا بالذي تعرِفُهُ
وأنتَ محاصرٌ هناكَ بالأسف
الأسفِ المُلوِّحِ باللافتاتِ التي قد تغتالُكَ مُبكِّراً؟
فواصلْ ضَرْبَكَ على الجدار، إذنْ
وأنا أُجيبُكَ بالضَّرْبِ على الجدار
فالزلزالُ - وهو ما ننتَظِرُهُ منذ سنين معاً -
ما زالَ ينمو رويْداً رويْداً
وقد نلتقي بَعْدَهُ
في الفيضانِ المُقبل. □